مشاهدات مسافر :

ألمانيا بعد الحرب

للدكتور محمد سامي الدهان

أجل أعود من جديد إلى هذا البلد الواسع الكبير ، يحفزني أمران ؛ فأنا أسعى في جمع تراثنا المخطوط من مكتبات ألمانيا المتفرقة في غنى ، الموزعة في نظام . وأنا أسعى كذلك في أن أتعرف إلى الأساليب الحديثة في كل شيء : في المعرفة والحياة ...

كان علي أن أسجل « القديم » وأن أرسمه حيث كانت ألمانيا أمة تهتز لذكرها أمم ، فيهم من يرى عندها المثل الأعلى والغاية القصوى ، وفيهم من يكفر بحضارتها ويطيل في ذمها. كان علي أن أسجل هذه الزيارة الطويلة الواسعة من أقصى حدود الراين ، بطاحه ونجوده ، حتى براين ؛ ومن هذه العاصمة حتى ليبزغ ومونيخ ونور برغ ، فالغابة السوداء وتوبنيكن ونهر الراين ؛ في شهور عصيبة من عام ١٩٣٨ ، والعالم يضع أبواباً لحدوده ويخترع الأقفال من ورائها ؛ فكان لأنباء الحرب هلع في القلوب وجزع في النفوس ونار في الرماد ، وهم تتوثب ، ودنيا ترتجف ، وآمال تبنى ، وأمان تتهدم . كان علي أن أصف كيف كانت تخوض ألمانيا حرب الأعصاب في الدعاية لجنسها والاستجابة لعرقها والجمع لشملها . وكنت وأنا أعبر الحدود البلجيكية الألمانية أقرأ في صحف باريس أن القوم أعلنوا التجنيد وجمعوا الصفوف وأنهم على أبواب حرب ، وقد أقسموا أن يقفوا بين رغبة ألمانيا واستلاب السوديت .

وما من شرقي عربي يستطيع أن يغزل من القطار عشرات المرات ، وأن يلبس القناع الواقي عشرات المرات ، وأن يتمرن في سفره على الاستعداد مع القوم لحرب عصيبة ، فلا يهتز له جنان ، ولا يرتجف له قلب ! فقد تعلمت الحرب عن الأدب ، وجربت النضال عن الكتب ، فلست أفهم فتاة تحرس النفق ، وامرأة تفتش المارة ، وأخرى تحمل السلاح . ولست أفهم كيف يؤمن عشرات من اللايين بالحرب في القرن العشرين ، يتقدمون إلى النار في ثغور باسمة وقلوب هائمة ، لا يسمعون إلا لصوت واحد في زحمة الأصوات ، ولا يتلفتون إلا لنداء واحد في جلبة النداءات .

كان علي أن أصف ما شهدت من اجتماع براين ، وما سمعت من الأقطاب الأربعة من خطب موتيخ ، وما كان فيهما من تأخير الحرب عاماً كاملا . ولكن هذا كله غدا في التاريخ ، وانطوى في الحقب ، وتحدث عنه الناس فأكثروا ، ووصفه الكاتبون الغربيون فأسهبوا . ولعل لي رجعة إليه حين يحلو الكلام فيه .

أما الآن ، وقد هدأ غبار المعركة الصاخبة ، وسكنت ثورة العاصفة الجامحة ، فقد أحببت أن أعود من جديد إلى هذا البلد القديم لأرى القوم في حال غير الحال ودنيا غير الدنيا .

ولن يكون السفر عن سبيل سفارة ألمانية وقنصلية جرمانية ، فقد تولى الحلفاء الأربعة في كل عاصمة منح الإذن لمن له أن يطلب المرور . وفي باريس على مقربة من ساحة « التروكاديرو » شارع ضيق طويل على البناء الأوسط كتابة عريضة تعلن عن موقع « مصلحة الأمور الألمانية والنمسوية » . فإذا دخلت فسترى الضابط الإنكليزي والأميركي والفرنسي يتجاورون في غرفة واحدة ويتحاورون في لغة واحدة ، تنتقل من مكتب إلى مكتب ، وأنت تتقلب بين شارات ونجوم فلا تجد أثراً للسلطة الرابعة ، لأنك

لكل حادث من هذا القبيل ، فقد أثقنا بين القوتين متراساً بشكل رعب متبادل بينهما (قوة الجند من جهة وثورة الرعاع من جهة أخرى) . بهذه الطريقة تبقى قوة الشعب العمياء سنداً لنا . ونحن وحدنا نجهزها بقائد ، وبالتالي ندربها في الطريق الذي يؤدي إلى هدفنا .

(لا تستغرب إذا قيل لك إن معظم الحروب والثورات ، ولا سيما الأخيرة منها نشأت من جراء مكايد صهيونية) .

بند ١٣ — (يقول الزعيم القائم في مؤتمر الحكماء الشيوخ)

قد يلوح لكم أن الجويم يقومون علينا في يوم من الأيام إذا أحسوا بما هو جارٍ من استعداداتنا قبل أن يحين الوقت الملائم لإعلان حكومتنا . أجل . ولكن عندنا في الغرب ضد ثوراتهم مناورات رهيبة تتصدع فيها القلوب الحديدية — المخابىء الخفية والسكك الحديدية تحت الأرض إلى غير ذلك من السراديب تعد قبل مجيء الوقت المنتظر تحت المواصم والحواضر . فمن تحت الأرض تنسف هذه المواصم والمدن فتنتفض في الهواء وتندثر كل أنظمتهم وسجلاتهم الخ . وفي مقال قادم خطتهم في الصحافة.

نقولا الحداد

تستطيع أن تقصد إلى أية منطقة إلا البلد الحرام ؛ حيث ركز الروس أعلامهم ، وبسط السوفيت ظلالهم . فإذا كنت تلح فى الزيارة فاذهب إلى براين وهناك تستشير من بيدهم الحل ، فيمنحون الأذن أو يحرمون ..

يا لله ما أعجب الدنيا تتبدل فى أعوام عشرة فكأنها ما كانت ، وتتغير فى سنين فكأنها ما وجدت ، يزورها المرء وهى بستان جامع وهضاب نضرة وبلدان عامرة ثم يعود إليها فإذا هى جرداء قاعة وأكوام من أحجار حتى ليخيل إليه أنه يزور بلاداً أصابتها الزلازل ، أو انهارت عليها البراكين ، أو تقادمت عليها القرون ومسحت عالمها العصور ، فيحسب أنه يزور مدينة أثرية يتلمس فى جنباتها التاريخ ويقرأ من خرائبها العبر . ذلك أول شعور يمس المرء حين يجتاز نهر « الراين » ، ويعبر الحدود . بل لعله وهو يتنقل فى قطار ضخم من ربوع الاتراس يكذب الخارطة بين يديه ويتهم نفسه بالجهل بالجغرافية فلا المعالم معالم ولا الحدود حدود .

واستقبلنا على الحدود جنود الألمانيون فى لباس نازى قديم بال لأنهم لا يملكون سواه ، وأقبلوا يفتشون الحقائب ، فما ينفكون يفتحونها ويغلقونها ، فيفتحون عيونهم للمنظر الجميل من ما كل لم يعرفوا طعمه منذ حين ، ولباس لم يعرفوا لمسه منذ أمد ، ثم يطبقون العيون على قذى ويشكرون المسافر ، ويحيلونه إلى السلطة المحتلة ، فتوزعه السلطة فى قطار من القطارات . ولن يشكو المسافر من القطار الذى يحمله والثمن الذى يدفعه ، فله الدرجة الأولى والثانية ، يمرح فيهما كما يشاء . وفى الثالثة سكان البلاد يتكدسون وقوفاً ، ويتعلقون بأطراف القطر وسلالمها ، كما يتعلق غلمان القاهرة بأطراف حافلات الترام سواء بسواء . وسيعجب الأجنبى للألمانى كيف يحيا اليوم ، فهو يقتطع الخبز الأسود الكبير لقمة بعد لقمة هى كل غذائه الذى رأيته فى يومين اثنين من رحيل القطار ، ويرى مناظر لا تصدقها عيناه . هذه امرأة مرضع نامت على جدار القطار وهى تحتضن وليدها ، وهذا شيخ سكت رفاقه عن استبداده فى الجلوس بالممر فنام جالساً ؛ وهذا شاب بلغ المحطة التى إليها يقصد وهو يعرف أنه بلغها لكن القوة خانته والجوع خذله فماله حيلة فى قيام ولا قعود ، فآثر البقاء ، وما ينتظر القطار الجياع ! ...

أما أنا فقد تعبت من مشاهد البشر ، وعدت إلى مكانى من العربة أتعلق بالطبيعة فهى أم رءوم وحسناء وفية ، أمتع النظر بالغابة السوداء ونحن نجتازها ، ثم بين صفوف من أشجار كثيفة عالية ، وقد شق القطار طريقه بينها ، متلوياً فى سحر لا ينسى وفتنة لا تزول ، هى كل زاد المسافر فى ألمانيا اليوم .

فلما أظلم الليل انتشانى النوم انتشالاً وما أيقظنى إلا صوت هذه الجموع الغفيرة فى المحطات ، فظننت أنه العيد ، فنحن فى يوم أحد ، وقد عرفت الألمانيين من قبل يعدون للأعياد عدتها والآحاد فرصتها ، فهم يرحلون من قرية إلى قرية لايستقرون ولا يقعدون ، يتنقلون فى جمال الطبيعة ، يقطفون ثمرة الأسبوع ، يجتجمون مواقع الزهر والمطر ، والجبل الشرف ، والنهر المغنى ، ولكن رفيقى فى السفر أفهمنى أن الألمانى يسافر إلى الريف يوم الأحد من كل أسبوع فى اصطياد البطاطس وانتشالها من التراب ، فالأرض أم لا تؤمن بمذهب ، ولا تدين بسياسة ، والبطاطس بعض الغذاء قبل الحرب وكل الغذاء بعد النكبة ؛ فلابأس فى أن يعد الألمانى أكياساً واسعة يجمع فيها كل ما تصل إليه يده فى السوق السوداء طعاماً لأسبوعه .

بلغنا محطة توبينكن ، فنزلت بين هذه الجموع المتراصة التى كانت ترقب القطار منذ الليل ، فأخذت سبيلى فى يسر غريب ؛ ذلك لأن للاجنبى سبيلا غير سبيل المواطن . غير أن العسر كل العسر فى أن تجد من يحمل الحقائب إلى المنزل ، فقد طفقت أبحث فى المحطة عمن يحملها وكنت أظنهم كثيرين لرداءة اللباس وفقر المظهر ، فلم يقبل على منهم أحد ، فلما أقبلت عليهم أعرضوا جميعاً ، ولما لجأت إلى تفسير وشرح ، وجدت من يرضى بلفائف التبغ جزاء ؛ فهى وحدها الرائجة وهى وحدها العملة النادرة .

وأخذت سبيلى إلى المنزل ماشياً ، فليس من عربات أو سيارات ولن أطمع فيها بعد الذى رأيت .

وعزفت عن التفكير إلا فيما جئت له ؛ فأنا أزور ثالث مدينة جامعية على « الراين » بعد بون وهايدلبرغ ، بل هى تمتاز عنهما بأنها من معهود الاستشراق ، ففيها ما ليس فى الجامعتين من مخطوطات عربية نفيسة ، ففيها المتنبى وأبو فراس وابن وحشية ، وفيها ليتمان و « بور » وفايفا يلر من مشاهير المستعربين فلا أقل من أن أقيم أياماً أستمتع بين القدامى والمحدثين ذكرى عاطرة ؛ وأقوم بالتحية الطيبة قبل أن أرحل إلى الدير ...

سامى الدهان